هكذا قال الأسياد..!

قال بصوته المبحوح وهو يضغط على يدي الخشنة بيده الناعمة كجلد ثعبان:

_ يجب إراقة الدماء هنا وقتها سيفتح الكنز أبوابه على مصراعيها.

_ دم..؟!

_ هكذا قال الأسياد.

يؤكد لي الشيخ (معتوق) أن تحت جدران بيتي الكبير ينام كنز عظيم، لكن حارسه عنيد، طلباته لا تنتهي، غير أن طلبه هذه المرة صعب قليلًا، غير أنني على استعداد تام لفعل أي شيء حتى أفوز بالكنز، منذ شهرين وأنا منشغل بهذا الأمر، تركت الخروج إلى الحقل ومتابعة أرضي، مما أغضب زوجتي التي تصفني بالجنون.

_ دعك من هذا الدجال، أرضك ستبور، لن نجني من ورائه سوى الخراب.

_ دجال يا جاهلة، إنه مفتاح الخير الذي سنغرق فيه قريبًا.

الحمقاء تبكي همَّ الأرض، بم ستنفعني تلك القراريط البائسة، غدًا تُفتح أبواب هذا الكنز، وأغرق في بحر الثراء، يومها سأترك القرية بأكملها، وسأتركك أنتِ أيضًا يا (صفية).

_ ماذا سأفعل..؟!

قلت محدِّثًا نفسي أثناء سيري في الظلام على الجسر الغربي متدثِّرًا بمعطفي الثقيل الذي احتمي به من لسعات البرد القارسة، جلست فوق جذع نخلة أفكر في أمر الكنز، متسائلًا: كيف سأنفذ للأسياد طلبهم الأخير؟

_ خير يا جابر، لماذا تجلس هنا في هذا البرد؟
_ مهموم يا قاسم، مهموم يا صديقي ...
قذفت إلى ذهني فكرة لا بد من تنفيذها، (قاسم) هو القربان الذي سأقدمه للأسياد، لكنه.. لكنه صديقي، والكنز، هل سأضحي به؟! لا.. ما ساقه إلى هنا في هذا التوقيت إلا قدره المحتوم، يبدو أن الأسياد تساعدني، هل أرفض المساعدة..؟!
_ قم بنا نكمل السهرة عندي في البيت، ما قولك؟
_ تخاف زوجتي عندما أتأخر خارج الدار.
_ قم يا رجل قم، دعك منهن.
توجهنا إلى بيتي، من جميل الحظ أن الوقت متأخر وشوارع القرية خلت من المارة، أدخلته من الباب الخلفي حتى لا تشعر بنا زوجتي.
_ ما هذه الرائحة..؟!
_ بخور، زوجتي تغرق البيت برائحته كل ليلة، تقول إنه يدفع العين، كلام نسوان، سأحضر الشاي حالًا.
تأكدت أن زوجتي قد استغرقت في نومها، وكذلك ابني (عمر) الذي لم يتعَدَّ الثامنة، أحضرت كوبين من الشاي، بعد تناوله استلقى (قاسم) فاقدًا وعيه، اتصلت بالشيخ (معتوق) الذي جاء في الحال، أطلق بخوره وأجرى اتصالاته الخاصة بالأسياد، الذين أمروا بذبح (قاسم) وتمزيق أعضائه وتعبئتها في أكياس، ثم رميه في الترعة، بعد الانتهاء من المهمة، خرجت محتميًا بالظلام ألقيت الجثة في ترعة قريتنا النائمة، وقفلت عائدًا إلى البيت.
في اليوم التالي انقلبت القرية رأسًا على عقب بعد العثور

على الجثة المقطّعة، قالت زوجتي بعد عودتها من العزاء:
_ مسكين قاسم، كان رجلًا طيبًا.
_ كلنا مساكين وطيبون يا صفية.
ثم راحت تعيد أسطوانة الأرض التي لا تملّ إزعاجي بها كل يوم، لكنني زجرتها وأقسمت لأضربنها بلا رحمة إن أعادت هذا الكلام.
أصبحت قليل النوم، كلما غفلت عيني أرى (قاسمًا) غارقًا في دمه يصرخ ويستغيث بي، لما شكوت للشيخ (معتوق)، نصحني بأن انشغل بالتفكير في الكنز، وقتها ستذهب عني تلك الكوابيس..!
مرت الأيام وأبواب الكنز لا زالت مستعصية، حتى قال الشيخ (معتوق) -ذات مساء- بعد انتهاء الحفر:
_ لا بد أن يكون هذه المرة من دمك.
_ من هو..؟!
_ صاحب الدم.
_ أي دم..؟!
_ المطلوب دم من أهلك.
_ ماذا تقول يا شيخ معتوق..؟!
_ هذا ليس قولي يا جابر، هكذا قال الأسياد، الأسياد.
الأسياد يقسون علي هذه المرة، يطلبون دمًا قريبًا مني، أي اختبار هذا الذي يضعونني فيه، لكنهم حتمًا يعرفون ما لا أعرف، لا بد أن أنفذ طلبهم، فأنا أريد الكنز الذي يحرسون بأي ثمن، بأي ثمن..!
_ هل سنأكل التراب الذي تخرجه لنا من حفرك كل ليلة، سلامة

عقلك يا جابر، سنموت جوعًا إن لم تفق من جنونك هذا.
(صفية) سئمت منكِ، لا تيأسين من ترديد هذا الكلام ليل نهار.
_ لماذا لا ترد علي، سأشكوك لأبي، سأفشي سرك وأقول للناس أنك تبحث عن وهم وتوقف حياتنا أمامه.
اشتعلت نار الغضب في رأسي، جذبتها من شعرها حتى تعالت صرخاتها:
_ هل جننتِ يا امرأة، أقطع لسانك لو فعلتِ، تعرفينني.
أفلتت من يدي وهرولت نحو ابنها الذي استيقظ على صوت صراخها، جذبته من يده ودخلا الغرفة.
زوجتي الحمقاء تكره الخير، هي لا تنظر إلا تحت قدميها الفقيرتين، أي عاقل هذا الذي يترك البحث عن كنز عظيم وينشغل ببضعة قراريط لا تملأ بطوننا خبزًا، ماذا لو أخبرت هذه المجنونة أحدًا بما أفعل..؟!
نهضت قافزًا من فوق الأريكة التي أكل الفقر جسدها، عندما أنارت في عقلي تلك الفكرة المرعبة، مرعبة لكن لا بد منها، منه أتخلص من إلحاحها الذي صدعت به رأسي، وأنفذ ما طلبه الأسياد.
_ لا يتم الأمر هكذا، لا ينفع.
_ لماذا؟ ألم تقل أحدًا من أهلي، إنها زوجتي، اسألهم، حتمًا سيوافقون.
_ دم صغير لم يبلغ، هكذا قال الأسياد.
قلت بانفعال:
_ ماذا، ماذا تقصد يا شيخ معتوق.
_ دم ابنك هو المطلوب.

صرخت في وجهه، وأفلتُّ المعول من يدي فنزل على رجلي، نزف الدم منها، لكنني أكملت:

_ هل جننت يا شيخ معتوق، ماذا تقول..؟!

اقترب مني كالشبح المخيف، ثم قال بصوته الأجش:

_ لن أحاسبك على هذه الكلمة، وكأنه قولي يا جابر، أنسيت، إنها مطالب الأسياد، الأسياد.

لم أنبس بكلمة وكأنني أكلت لساني، ذهب الرجل وتركني غارقًا في نزف رجلي وقلبي.

في غرفة ابني، جلست بجانبه وهو مستغرق في النوم كملاك صغير، هل أسمع كلام الأسياد هذه المرة وأنفذ ما طلبوه؟! يطلبون روح صغيري، لكن إن لم أفعل، كيف سأعثر على الكنز؟ قطعت حبل تفكيري بصوتها المزعج:

_ خيرًا، ماذا تفعل هنا هذه الساعة؟

_ هل منعتني من غرفة ابني، لم أكن أعرف أن عليّ استئذانك..!

_ الله يهديك يا جابر، الله يهديك.

أخذت قراري، سأنفذه هذه الليلة، فقط أتأكد من نومها، وقتها سأنفذ دون تردد.

تسللت إلى غرفته، حملته بين يدي، في الحجرة التي ينام الكنز العنيد تحت جدرانها تركته بجانب أدوات الحفر، ورحت أجلب السكين، ارتجفت يدي وأنا أسنها، سالت دمعة شاردة لم أقوَ على منعها، لكن بفضل الكنز الذي يسكن بريقه رأسي استجمعت نفسي، وأمسكت السكين، كأنني نسيت كيف فعلت أول مرة، رحت أنظر للسكين تارة ولصغيري تارة أخري، الوقت يمضي، وصغيري مستلقٍ بين يديّ، والكنز يناديني، يناديني..!